التعليم

بين المؤثرات التاريخية والاخطاء البورجوازية

لعبد الرحمن شكري
المفتش بوزارة المعارف

يزداد عدد الشبان العاطلين يوماً بعد يوم على الرغم مما حازوه من الشهادات. وكان الناس يظنون ان التعليم نعمة تي صاحبها شر البطالة لان ابواب الرزق كانت تفتح امام المتعلمين القليلين فلما زاد عددهم ضاقت بهم ابواب الرزق فظن بعض المفكرين ان سبب ذلك قلة نصيب المتعلمين من الثقافة وان نصيبهم اقرب الى ان يدعى قشوراً وانهم اذا زاد حظهم من الثقافة التي هي دواء لكل داء مثل إكسير الحياة، لم يصبهم حتى داء العطل من العمل

على ان هذا الشباب المتعلم العاطل من العمل غير مقصور على مصر بل هو ايضاً في الدول الغربية . وبعض هؤلاء العاطلين نصيبهم من الثقافة الفكرية نصيب عظيم . وقد يعجب المفكر من وجود العطل من العمل في الدول الغربية . فانهُ يقول هذه بلاد توارث الناس فيها الملكات العملية وميولها جيلاً بعد جيل ثم تمتعوا ببيئة منزلية وغير منزلية تساعد على تمكين الطبائع العملية في النفوس ثم وجدوا فرصاً كثيرة تزيد هذا التمكين من الفرص وللمؤهلات والمؤسسات والاسواق الاقتصادية والمستعمرات فلم تحُل جميع هذه العوامل دون انتشار عطل المتعلمين بينهم . ولا مراء في ان سريان سنة العرض والطلب الاقتصادية كان لها اثر في هذا الانتشار وكانت هناك اسباب ليس هذا المجال مجال بحثها، ولكن مما لاريب فيه ان سياسة التعليم وخطته العامة كان لها اثر أيضاً لان الطبقة الوسطى على اختلاف درجاتها عندما ظفرت بالحكم والسلطة في دول غرب اوربا في القرن التاسع عشر جعلت خطة التعليم العامة مؤسسة على الثقافة النظرية، وتقديس (البورجواه) لهذه الثقافة وسعيهم في طلبها يشبه سعي أهل القرون الوسطى في طلب إكسير الحياة او حجر الفيلسوف . وقلنا ان طبقتهم ليست في الحقيقة طبقة واحدة متجانسة وليس جميع أفرادها ولا كل من ينتمي بحسب خطتهم الثقافية (ان صح انهم كانت لهم خطة لا بعض

اتجاه فكري) ممن يستطيعون ان يعيشوا بالثقافة الفكرية دون سواها . وقد بدأوا الآن يندبون حظ العاطلين ممن يسمون بذوي «الياقات» البيض . ومن اغلاطهم انهم لم يدركوا فائدة الانتفاع من زيادة تمكين الطبائع العملية من النفوس بالوسائل التعليمية المصطنعة في المدارس الا في العهد الاخير وربما كان السبب في ذلك اغترارهم زمناً بعمل عوامل الوراثة والبيئة والفرص الاقتصادية في بلادهم على تمكين هذه الطبائع . وفاتهم ان مثل الوسائل العلمية المصطنعة التي تتخذ لزيادة تمكين الطبائع والميول العملية في النفوس وتنمية ما ينشأ عنها من الصفات في العقول والجسوم كمثل الوسائل العلمية الحديثة في الزراعة فان خصب التربة لا يغني عنها وكذلك النفوس الغنية بالميول العملية المخصبة بها لا تستغني عن الوسائل التعليمية المصطنعة المنظمة التي تتخذ للاستيثاق من تمكين هذه الطبائع والميول العملية

ولما كنا نجاري دول غرب أوربا في خطتها التعليمية فقد وقعنا فيما وقعت فيه من أخطاء وكانت هذه الاخطاء أشد ضرراً بنا لان المؤثرات التاريخية والاجتماعية في نفوسنا غيرها في نفوسهم ولا تعمل كثيراً على توافر هذه الطبائع والميول العملية في نفوسنا ولان البيئة عندنا منزلية كانت او غير منزلية لا تعمل أيضاً على توافر هذه الطبائع ولان الفرص والمؤسسات الاقتصادية التي من شأنها إنماء هذه الطبائع ليست متوافرة عندنا كما هي متوافرة في هذه الدول التي نجاريها

***

والذي يتتبع خطة التعليم في مصر في الجيل الماضي يجد ان محورها كان زيادة المناهج او انقاصها وزيادة مرحلة الثقافة العامة او انقاصها وما عدا ذلك من اوجه الاصلاح كان عرضاً لا جوهراً ولا محوراً لخطة التربية والتعليم وما كان منه صالحاً لم يستفد منهُ فائدة تذكر لان واضعي خطط التعليم كانوا يدينون بعقيدة الاكثار من الثقافة العامة من غير تمييز بين المتعلمين وحاجاتهم وطبقاتهم وكان لفظ الثقافة محور التفكير والحديث والكتابة والفخر وكانوا يقولون ان المرء اذا تثقف ثقافة عامة كان صالحاً للحياة وكانت الحياة صالحة له وانما كانوا يختلفون في سبيل تحقيق هذه الثقافة فبعضهم كان يرى توافرها في اطالة مرحلتها في التعليم او في إزراع مناهجها واشباعها وبعضهم كان يرى توافرها في تخفيف المناهج مع نشدان الجودة . وكان اتجاه كل فريق مثل الاتجاه الفكري عند الحكام من «البورجواه» في دول غرب اوروبا أو من المتعلمين منهم بطبقة الاشراف الاغنياء وتقديس «البورجواه» للثقافة تقديساً يصرف النظر حتى عن مهيئاتها هو أمر نبيل وهو ضرورة لهم لحفظ السلطة في يدهم ولكن لم تكن جميع اسبابه عالية نبيلة فقد كان من اسبابه حسد الاغنياء من «البورجواه» للمتعلمين المستمدين من اغنياء الاشراف الذين كانت في يدهم مقاليد الحكم قبل فوز

«البورجواه» في القرن التاسع عشر ولكن الثقافة كانت عند اكثر الاشراف لذة عقلية لا عقيدة ودينا كما جعلها «البورجواه» كي يخفوا بعض الاسباب الحقيقية التي جعلتهم يأخذون بها

***

وكثرة التحدث بالثقافة ومزايا الثقافة قد صرفت المفكرين عندنا عن سبيل تحقيق الثقافة فان خوفهم من ان يجور التخصص على الثقافة فينتج نشأ ناقصاً قد جعلهم لا يميزون بين وسائل تمكين الطبائع العملية من النفوس وبين التخصص. فكلما جد اقتراح من شأنه تمكين الطبائع العملية اثناء مرحلة تعليم الثقافة قيل هذا تخصص في عمل من الاعمال لا يصح ان يتدرب عليه اثناء مرحلة الثقافة. وبهذا التفكير جنوا على الثقافة التي ينشدونها لان الحواس هي ابواب النفس واذا لم تربَّ ولم تربَّ الطبائع العملية كانت النفس مغلقة او شبه مغلقة لا تقبل كل ما يرد اليها من المعقولات. وهذه الحواس والطبائع العملية والصفات التي تنشأ عنها، ومنها حضور الذهن واليقظة الفكرية وسرعة الخاطر ودقة الحكم على الحقائق وإقدام الواثق المؤهل، امور لا تسعى الا بمنهج فيه كثير مما يرفضهُ القائلون بالثقافة قبل كل شيء ويقولون برفض كل ما يظن انهُ تخصص في اثناء مرحلة الثقافة. ومن أجل ذلك لم يثمر ما يسمى بالنشاط المدرسي كل ثمرته لانهُ لم يكن بالجوهر بل كان العرض في المدارس فكان مقصوراً على عدد قليل من الطلبة وعلى انواع محددة من النشاط ولم تعدَّ له كل ما يحتاج اليهِ من حجرات او مال او اخصائيين او ادوات او فراغ ولم ينظم بطريقة المنهج الواسع النطاق المدرج الذي يراد به ما يراد من بث الصفات والطبائع العملية ولم يتضمن نتائج ابحاث المشتغلين بالتربية ولا منهجاً لتربية الحواس والملكات كما تربى على طريقة منتسوري مثلاً ولا نظاماً للتدرب على اعمال الحياة المختلفة، كما في المدارس التجريبية الاميركية ولا على غير ذلك من نتائج خبرة المشتغلين بالتربية الحديثة وبحثهم — وقد يعترض معترض فيقول ان طرق تربية الحواس والملكات من امثال طريقة منتسوري انما تراد لناقصي العقول والملكات وهذا وهم فان ثمرتها تكون اتم وأعظم في غيرهم. وقد يعترض معترض فيقول ان المدارس التجريبية في اميركا وغيرها ما هي الا تجربة فحسب وهذا وهم فان هذا الاتجاه الفكري قد اثر في المدارس عامة وكان من اثره ما يسمى بالنشاط المدرسي

واذا نظرنا الى تاريخ الامم وجدنا لكل منها حضارتين او ثقافتين فلها ثقافة في ابان نهضتها من البداوة او ما شابه البداوة من انواع المعيشة وهي الحضارة التي تكون للامم عند اخذها بأسباب الثقافة، قبل ان تفقد الطبائع والميول العملية التي هي اكثر في معيشتها الاولى قبل ان تتطورها رخاوة الحضارة وطراوتها. ولها ايضاً ثقافة اخرى او قل هي شكل يدخل

على الحضارة والثقافة الاولى بعد ان تنال منها وخاوة الحضارة وعوامل الضعف الاجتماعي المختلفة سواء أمن فساد القوانين والنظم الاجتماعية نشأت أم من ركود التجارة والصناعة والاعمال النافعة لاسباب اخرى . وهذه الثقافة الاخيرة قد تكون في بعض البيئات واقية من الناحية الفكرية النظرية ولكنها قلما تكون مثمرة لافتقاد الميول العملية والصفات الناشئة من طبائعها والتي كانت لها في حضارتها الاولى

وفي مثل هذه الحال لا بد ان تحاول الامة احياء تلك الطبائع العملية واعادة تمكنها من النفوس بالوسائل التهذيبية التعليمية المصطنعة وهذه المحاولة هي ما ينبغي ان يكون محور خطة التعليم وأساسها وما يستدعي تفكيرنا وسعينا قبل كل شيء حتى قبل التفكير في الثقافة فاننا اذا فعلنا ذلك كان امر الثقافة بعد ذلك هيناً وكانت اتم وأحسن وأكثر ثمرة

***

وكما ان لنا في حياة الامم وتاريخها وحضارتها التي ذكرناها عظة وحجة وعبرة فان لنا في حياة الانسان الفرد اعظم حجة وأكبر عظة . فالطفل لا بد ان تتفتح حواسه وتربى في طفولته، وهي عادة تربى في المنزل والبيئة عفواً بطرق غير منظمة ولكنها تربية على اي حال، قبل ان ينمو ويستعد لقبول الثقافة النظرية الفكرية . وتربية الحواس المنظمة تصحح وتساعد تربيتها غير المقصودة والخطر كل الخطر في الامة المتحضرة بالحضارة الاخيرة من حضارتها اي الحضارة التي فقدت فيها الطبائع العملية اذا كانت الثقافة هي محور التعليم ان تزيد هذه الثقافة النظرية الفكرية ابناء هذه الامة عجزاً على عجز وتغريهم باحلام اليقظة وتشتت ذهنهم وتشل مساعيهم فتكون تلك الثقافة اشبه الاشياء بالمخدرات لا اقل ولا اكثر

***

وقد يعترض معترض فيقول اذا كانت الاعمال تمكن الطبائع والميول العملية من النفوس وتؤهل للنجاح فيها فلم لم تفعل ذلك في مدارس الصناعة والزراعة وهذه مغالطة . فانها تفعل ذلك وانما يكون أثرها اعظم لو ان طلاب هذه المدارس قد نشأوا من صغرهم على خطة من التعليم محورها تربية الحواس والملكات بالطرق البيداجوجية المنظمة الحديثة وتمكين الميول العملية من النفوس واقامة عاداتها التي تؤهل للنجاح في الحياة والتي تجعل الانسان اكثر استعداداً للانتفاع بالثقافة العقلية . والحقيقة ان بعض طلاب الثقافة يخسرون الثقافة ويضلون طريقها كما يضل طريق السعادة او الصحة بعض من يشون انفسهم ويشقونها بالتفكير فيهما في كل لحظة